7

مواجهة ساخنة بين المشير وحليم

(الفنان بطبعه متمرد، حر، طليق، والسلطة ـ أي سلطة ـ تمثل قيدًا عليه.. الصداقة بين الفن والسياسة هي صداقة محفوفة بالمخاطر.. صداقة حتى إشعار آخر!)

"عبد الحليم لم يكن صديقًا لقادة الثورة، بقدر ما كان صديقًا للثورة نفسها ذاتها. وأي حب أو صداقة أو علاقة اندفاع تجاه أي من رجالات الثورة وقادتها، كان من أساسياته ودوافعه والمحرك له، حبه للثورة وتجاوبه مع مفهومها وأهدافها وجوهرها ومبادئها التي ظهرت بها، منذ أن اعتبر عبد الحليم نفسه ابنًا من أبنائها وأحد مظاهرها" أعجبتني هذه الفقرة التي كتبها مجدي العمروسي في كتابه عن العندليب "أعز الناس"؛ ففيها تلخيص لحكاية حليم مع المشير عبد الحكيم عامر – الرجل الثاني في مصر قبل 67 – الذي اقترب منه حليم كرجل من رجالات الثورة المصرية، وابتعد عنه عندما اكتشف أن المشير رجل سياسة، قلبه عند مصلحته، ومنذ متى اتّحدت السياسة مع الفن؟

إن الفنان بطبعه متمرد، حر، طليق، والسلطة – أي سلطة – تمثل قيدًا عليه، الصداقة بين الفن والسياسة هي صداقة محفوفة بالمخاطر، صداقة حتى إشعار آخر!

الكاتب منير عامر الذي أعطاه العندليب الراحل قصة حياته ونشرها مسلسلة في مجلة صباح الخير، ثم أصدر عنه كتابًا آخر بعد رحيله، قال لي:

عبد الحكيم عامر يكاد يمثل الجسر الأساسي بين ثورة 23 يوليو وبين عبد الحليم حافظ، ولم يهتز هذا الجسر إلا بعد واقعة الخلاف الشهيرة بين سيدة الغناء العربي أم كلثوم وبين حليم في الاحتفال بذكرى الثورة المصرية عام 1964، فقد وقف عامر بشكل واضح وقوي مع أم كلثوم.

وإذا كان عبد الناصر قد زار "حليم" مرة واحدة في بيته أثناء أزمة مرضية ألّمت به، إلا أن عبد الحكيم عامر كان هو الأكثر قربًا والأكثر متابعة لحليم، فهو الذي أزال العقبات أمام سفر

حليم في رحلته للعلاج بأمريكا بعد يوليو 1963، وقام – بنفسه – بعمل الإجراءات الإدارية للسفر.

حليم كان ناصريًّا أكثر منه ساداتيًّا، رغم أن السادات قد فتح بيته لحليم، ولكن حليم كان مرتبطًا بالثورة نفسها وبرموزها؛ فالثورة هي السبب الحقيقي وراء وجوده، حتى إن ظهوره كان في اللحظة نفسها التي أعلن فيها عن ميلاد الجمهورية، وقد استفاد من رغبة الثورة في أن يعبر عنها، ولكن تقربه كان من خلال حفل أقيم في الجزائر.

وكان عبد الحليم يتواجد بشكل مكثف في مكتب المشير عبد الحكيم عامر، واستمرت بينهما العلاقة حتى حدوث أزمة أم كلثوم عام 1964، ولكن العلاقة استمرت بينه وبين شمس بدران الذي توسط للصلح بينه وبين أم كلثوم، وأيضًا فشمس – وليس المشير – هو الذي وفّر مسرح الإسكندرية ليغني فيه عبد الحليم أغنيته الشهيرة "يا أهلاً بالمعارك"، وهو الحفل الذي أقيم لمصالحة عبد الحليم وحضره عبد الناصر والمشير.

وربما يكون عبد الحليم قد حقق بعض المكاسب من خلال علاقته بالمشير، منها مثلاً شقة الزمالك التي عاش فيها حتى أيامه الأخيرة، وأحيانًا كان يطلب من المشير تسهيل شراء سيارات "نصر" لبعض أقاربه ومعارفه.

أما على الصعيد الفني، فقد ساعد عبد الحليم زملاءه الفنانين في طلب موعد مِن عبد الناصر – وكان ذلك مِن خلال المشير – للنظر في شكوى الفنانين مِن مبالغات الضرائب عن أرباحهم، وهو الاجتماع الذي حضره حشد من الفنانين يتقدمهم محمد عبد الوهاب الذي لوحظ أنه لم يتفوّه بكلمة واحدة طوال الاجتماع، بينما كان حليم هو أكثر المتحمسين والمنفعلين، ولذلك داعب ناصر الفنان عبد الوهاب بقوله: إنت اتكلمت كتير وشرحت الموقف كويس يا أستاذ محمد!

وعن اهتمام المشير بالفن والفنانين يقول منير عامر: بدأ ذلك من خلال صلاح نصر الذي حبب إليه الاستمتاع بمجالستهم وتمضية بعض الوقت معهم، بالإضافة إلى أنه كان يرى في (حليم) – تحديدًا – تجسيدًا للثورة مع عزوف عن الانغماس فيها.

ولكن العلاقة بين حليم والمشير تكسرت على أعتاب أزمة حليم مع السيدة أم كلثوم، بعد ما لاحظ حليم وقوف المشير بقوة إلى جانب كوكب الشرق، وانحيازه لرغبتها في اختيار الموعد المتميز الذي رأت أنه يحقق انتشارًا أفضل لأغنيتها الوطنية والعاطفية، مع الاستئثار بأذن ضيوف الحفل الكبار.

ولذلك فعندما وقعت كارثة 1967، وما تلاها من القبض على المشير وتحديد إقامته، لم يفكر أحد في سؤال عبد الحليم عن علاقته بالمشير، ولم يتوقعوا عنده جديدًا يفيد التحقيقات، فالعلاقة بينه وبين المشير كانت قد تحولت إلى علاقة يغلب عليها الفتور.

ومن جهة أخرى كان حليم أذكى من أن ينغمس في السياسة قبل 67، أما بعد النكسة فقد انغمس أكثر في لعب الورق (الكوتشينة) كغالبية المصريين، فأسرف في السهر وارتياد النوادي الليلية، ولكن مع وجود حالة حرب (الاستنزاف) كان يعتبر نفسه جنديًّا في الميدان.

وعن تفاصيل الخلاف بين المشير وحليم يقول مجدي العمروسي: "كانت ليلة 23 – يوليو – تقام فيها حفلة ينظمها الجيش، ضيف الشرف فيها هو جمال عبد الناصر، والداعي فيها عبد الحكيم عامر نيابة عن الجيش، وكان يُدعى لإحياء هذه الحفلات الصفوة من الفنانين وعلى رأسهم سيدة الغناء وعندليب الغناء، وكان ترتيب الحفل أن تغني سيدة الغناء أغنيتها الوطنية، ثم تحضر العشاء مع عبد الناصر ومعها عبد الوهاب وعبد الحليم، ثم في الساعة 12 يغني عبد الحليم في الوقت المتميز".. وفي عام 1964 أعدّت السيدة أم كلثوم قصيدة وطنية، وأرادت أن تأخذ الموعد الذي اعتاد عبد الحليم أن يغني فيه، وبعد أن تنتهي هي يبدأ حليم في الغناء بعد الثالثة صباحًا، وكان من ضيوف الحفل الإمبراطور هيلاسلاسي والرئيس بن بيلا والرئيس نكروما وغيرهم.

وكان طريق السيدة أم كلثوم لتنفيذ ما أرادت هو المشير عبد الحكيم عامر – الذي كان العندليب يظن أنه صديقه – قالت أم كلثوم للمشير إن المسرح حارّ جدًّا وليس به تكييف، وأنها تتعب من التأخير، وأضافت حسب رواية الأستاذ مجدي العمروسي: "أنا عاوزة أغني أغنيتي الوطنية وبعدها العاطفية وأروّح، وأترك لكم المسرح بعد ذلك أنتم أحرار فيه".

وكانت علاقة السيدة أم كلثوم بالمشير تسمح لها بهذا الطلب فيما يبدو، ولكن المشير ربما لأنه اعتقد أن الأمر عاديًا، وربما لسبب آخر، لم يُبلغ الأمر لعبد الحليم، ولم يَعلم حليم ذلك إلا قبل الحفل بساعة واحدة فقط! فذهب مسرعًا إلى حيث مكان المشير وأبلغه بأنه لن يغني في هذا الحفل، ولكن المشير كان في غاية الرقة وهو يهدئ من غضب العندليب لدرجة أنه كان يمسك شعر رأس حليم وهو يطلب منه العدول عن موقفه، بل وأخبره أن موافقته على طلب أم كلثوم جاءت دون أن يعرف أن في الأمر ما يغضبه، وأثناء الحوار المشترك بين المشير وحليم مر بهما الرئيس عبد الناصر وعرف أن حليم غاضب من موعد غنائه، إلا أن المشير عامر خفف الأمر وقال: إن سبب غضب حليم هو أنه سيغني بعد انصراف الرئيس وضيوفه، وفورًا أصدر ناصر قرارًا بتأجيل موعد سفر ضيوفه، ليستمعوا جميعًا لغناء حليم. ولكن حليم لم يَنْسَ ما فعلته كوكب الشرق، فبدأ وصلته الغنائية بكلمة وجّهها لحضور الحفل قائلاً: "إنه شرف عظيم أن يختم أي مطرب حفلاً تغني فيه سيدة الغناء أم كلثوم، ولكن اللي أنا مش متأكد منه، إن كان ده شرف ولا مقلب من السيدة أم كلثوم؟".

وتكهرب الجو..

وفي اليوم التالي تم إبلاغ حليم أن المشير عامر يريد رؤيته في المعمورة، ولم يكن حليم يدري أنه في هذه المقابلة سيرى مشيرًا آخر غير الذي يعرفه واعتاد رؤيته، فقد ذهب إليه في المعمورة ليجد رجلاً متجهمًا، تجاهل حتى التحية التي وجهها إليه حليم عند دخوله غرفة المكتب، وتظاهر المشير بأنه منهمك في دراسة أوراق أمامه، وكان بصحبة حليم في ذلك اليوم صديقه مجدي العمروسي وعلي إسماعيل، ورغم أن مجدي العمروسي يؤكد أن اصطحاب علي إسماعيل معه بسبب اعتقاد حليم أنه ذاهب لتسلّم وسام أو نيشان بمناسبة إجادته الغناء في حفل الليلة السابقة، إلا أن الأمر بدا وكأن حليم يخشى رد فعل المشير بسبب جملته الغاضبة في حق كوكب الشرق التي تأكد من التقدير الشديد والمكانة الخاصة لها عند المشير عامر(!).

وبصوت جهوري فيه رائحة (الشخط) سأل المشير:

- إيه اللي إنت قلته إمبارح ده؟ هي أم كلثوم اللي بتنظم الحفل واللا الجيش؟

وأردف قائلاً بنفس لهجته الغاضبة: بكرة يا أستاذ تنشر في كل الجرايد اعتذار صريح تعتذر فيه للسيدة أم كلثوم عن اللي قلته.. فاهم؟".

وكاد عبد الحليم أن يبكي وهو يسمع هذه النبرة من المشير وقال بكبرياء الفنان: "شوف يا فندم.. أنا مطرب صغير، وسيادتك الرجل الثاني في مصر، ممكن تمنعني من الغناء، تودِّيني السجن الحربي، ممكن تخرجني من مصر، لكن لا يمكن أبدًا سيادتك أو أي مخلوق يقدر يخليني أنزل عن كرامتي وأعتذر لأي مخلوق مهما كان، ولو كانت الست أم كلثوم"..

ونادى حليم على صديقيه: ياللا يا مجدي.. ياللا يا علي. وخرجوا جميعًا من الغرفة وسط صياح المشير: يا شمس.. يا شمس.. حوش المجنون ده!!

وفي العام التالي (1965) اختار المشير السيدة أم كلثوم لتحيي عيد الثورة منفردة بدون حليم، وردّ عبد الناصر بتنظيم حفل خاص في الإسكندرية لحليم..

هذه هي صورة مبسطة ولكنها واضحة لشكل العلاقة بين الفنان والسلطة.. قوة وبطش وكبرياء قد يدفع الفنان ثمنه.

ورغم ما قاله لنا الكاتب منير عامر، فإن الكاتب عادل البلك في كتابه "عبد الحليم حافظ" يؤكد أن العلاقة بين المشير وحليم كانت طيبة وودية أكثر من اللازم، فكان المشير يترك كل أعماله وأعبائه عندما يشاهد حليم و... بالأحضان!

والأهم من ذلك فإن عادل البلك يكشف عن وفاء العندليب لأصدقائه، وخاصة صداقته مع المشير عامر، حتى بعد واقعة انحياز المشير لسيدة الغناء في عام 1964 بسنوات، وهو يقول في هذا السياق: "وإذا كان المشير عامر قد منعه من الغناء في احتفالات 23 يوليو، فإنه لم يترك المشير في أزمته مع الزعيم الراحل عبد الناصر.. كان يزوره دائمًا في فيللته بالجيزة عندما تحولت الفيللا إلى ترسانة مسلحة أو "قشلاق" بها قليل من الجنود، وكثير من الصعايدة الذين حضروا من بلدة المشير "إسطال" ومعهم أسلحتهم.

ويمضي البلك في روايته لهذه الواقعة المهمة فيقول:

- كان مجدي العمروسي ينتظره على باب الفيللا، وشاهد الرئيس عبد الناصر يدخلها، وكان الرئيس عبد الناصر حريصًا على أن يذهب بنفسه لإخراج صديق الشباب ورفيق السلاح المشير عامر، قبل أن تهاجَم الفيللا ويحدث ما لا تحمد عقباه، وإن كان حدث بصورة أو بأخرى بعدها بأيام قليلة.

وعندما شاهد الرئيس عبد الناصر عبد الحليم نادى عليه وقال له:

- إنت بتعمل إيه هنا؟

- وقال حليم: أبدًا يا فندم، أنا بازور المشير!

فقال له عبد الناصر: طيب روّح أنت.

وبقي عبد الناصر واقفًا حتى شاهد بنفسه عبد الحليم وهو يركب سيارته ويتحرك بها.

هنا يقول مجدي العمروسي:

- في الطريق شاهدت الدبابات تملأ الشوارع المحيطة بفيلا المشير، ودبابات أخرى في طريقها إليها، وعرفنا أنها نهاية الصداقة الطويلة العريضة التي ربطت بين الزعيم والمشير، ونهاية سلطة المشير وسلطانه.

وكان هذا نموذجًا لصداقة من نوع خاص بين فنان وأحد مراكز السلطة، نموذجًا لصدق الفنان ووفائه تجاه سلطة كانت تتهاوى وتسقط من علٍ.

وكان أجمل ما فيها أن الفنان لم يكن يبحث عن مصلحة في آخر مراحل الصداقة، وإن كان قد وجدها في بدايتها!

حليم كان يصادق في السراء والضراء، يعانق في أيام الفرح ولا يهرب في لحظات الدموع!!